

## الداء والدواء

### اللقاء الثالث والثلاثون

■ **وَمِنْ حَاصِبِيهِ أَيْضًا [مُفْسِدَةُ الرَّبِّي]:** أَنَّهُ يُشْتَبُّ الْقَلْبَ وَيَمْرِضُهُ إِنْ لَمْ يَمْتَنِهِ، وَيَجْلِبُ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ وَالْحَوْفَ، وَيُبَاعِدُ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَلِكِ وَيُقَرِّبُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَيْسَ بَعْدَ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ أَعْظَمُ مِنْ مَفْسَدَتِهِ، وَهَذَا شَرِيعٌ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى أَشْنَعِ الْوُجُوهِ وَأَفْحَشِهَا وَأَصْعَبِهَا، وَلَوْ بَلَغَ الْعَبْدُ أَنَّ امْرَأَتَهُ أَوْ حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَهْمًا زَنْتًا.

«وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَصَرَيْتُهُ بِالسَّبْفِ عَيْرٍ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: تَعْجَبُونَ مِنْ عَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَعَيْرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعَيْرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ عَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ اللَّهَ يَعَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعَارُ، وَعَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ» .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَا أَحَدَ أَعَيْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتَى عَلَى نَفْسِهِ» .

كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعَارُ أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَهِيَ كُلُّ حَاصِلَةٍ قَبِيحَةٍ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، غَيْرَةً عَلَى عِبَادِهِ وَحِفْظًا لِمَصَالِحِهِمْ. غَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جِنْسِ صِفَاتِهِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مِمَّا تَلِيهِ الْغَيْرَةُ مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ هِيَ صِفَةٌ تَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ، مِثْلُ الْعُضْبِ وَالرِّضَا. الدَّرَجَاتُ السَّنِيَّةُ. (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي خُطْبَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا أَحَدَ أَعَيْرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِيَّ عَبْدُهُ أَوْ تَزِيَّ أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعَلَّمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟» .

☐ وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سرٌ بديع لمن تأمله، وظهور الزنى من أمارات خراب العالم، وهو من أشرط الساعة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: «لأحدثتكم حديثاً لا يُحدثكموه أحدٌ بعدي، سمعته من النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: من أشرط الساعة أن يُرفع العلمُ ويظهر الجهلُ ويُشرب الخمرُ ويظهر الزنى ويقل الرجالُ وتكثر النساءُ، حتى يكون لخمسين امرأةً القيم الواحدُ» وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويستد غضبه، فلا بُد أن يُؤثر غضبه في الأرض عُقوبةً.

☐ قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها.

☐ ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يعمر امرأة، فقال: مهلاً يا بُني، فصرع الأب عن سريه فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته، وقيل له: هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خيراً أبداً.

☐ وحصَّ سبحانه حدَّ الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث حَقَّقه جمع فيه بين العُقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنةً.

الثاني: أنه نهي عباده أن تأخذهم بالزناة رافةً في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدِّ عليهم، فإنه سبحانه من رافته بهم ورحمته بهم شرع هذه العُقوبة؛ فهو أرحم بكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العُقوبة، فلا بمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرافة من إقامة أمره.

☐ وهذا - وإن كان عاماً في سائر الحدود - ولكن ذكر في حدِّ الزنى خاصةً لشدَّة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاتل وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهدٌ بذلك، فنُها أن تأخذهم هذه الرافة وتحملهم على تعطيل حدِّ الله.

☐ وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة إلى رحمة العاشق، وكثير من الناس يعدُّ مساعده طاعةً وقربةً، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمةً عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فهو مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نُقاصُ العقول كالحُدام والنساء.

← وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا ذَنْبٌ غَالِبًا مَا يَقَعُ مَعَ التَّرَاضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَالِإِغْتِصَابِ مَا تَنْفُرُ النَّفُوسُ مِنْهُ.

← وَفِي النَّفُوسِ شَهْوَةٌ غَالِبَةٌ لَهُ فَيَصَوِّرُ ذَلِكَ لَهَا، فَتَقُومُ بِهَا رَحْمَةٌ تَمْنَعُ إِقَامَةَ الْحَدِّ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ.

✽ وَكَمَالُ الْإِيمَانِ أَنْ تَقُومَ بِهِ قُوَّةٌ يُقِيمُ بِهَا أَمْرَ اللَّهِ، وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِهَا الْمَحْدُودَ، فَيَكُونُ مُوَافِقًا لِرَبِّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَشْهَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَكُونُ فِي خَلْوَةٍ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُمَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ أُنْبَغُ فِي مَصْلَحَةِ الْحَدِّ، وَالْحِكْمَةُ الرَّجْرُ، وَحَدُّ الرَّبِّي الْمُحْصَنِ مُشْتَقٌّ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْمٍ لُوطٍ بِالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ، وَذَلِكَ لِاشْتِرَاكِ الرِّثَا وَاللِّوَاطِ فِي الْفُحْشِ، وَفِي كُلِّ مِنْهُمَا فَسَادٌ يُنَاقِضُ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّوَاطِ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا يَقُوتُ الْحَصْرَ وَالتَّعْدَادَ، وَلَأنَّ يُقْتَلُ الْمَفْعُولُ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ فَسَادًا لَا يُرْجَى لَهُ بَعْدَهُ صَلَاحٌ أَبَدًا، وَيَذْهَبُ خَيْرُهُ كُلُّهُ، وَتَمَّصُ الْأَرْضُ مَاءَ الْحَيَاءِ مِنْ وَجْهِهِ، فَلَا يَسْتَحْيِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعْمَلُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ نُطْفَةٌ الْفَاعِلِ مَا يَعْمَلُ السُّمُّ فِي الْبَدَنِ.

☞ وَقَدْ اِخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ يَحْكِيهِمَا.

☐ وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ اِحْتَجُوا بِأُمُورٍ:

■ مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدٌ زَنِيَّةٌ» [حديث ضعيف سنداً ومنكر متناً] فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ وَلَدِ الرَّبِّيِّ مَعَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مَطْنَةٌ كُلِّ شَرٍّ وَحُبْثٍ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يَجِيءَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ خَبِيثَةٍ، وَإِذَا كَانَ الْجَسَدُ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى الْحَرَامِ، النَّارُ أَوْلى بِهِ، فَكَيْفَ بِالْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ مِنَ النُّطْفَةِ الْحَرَامِ؟ قَالُوا: وَالْمَفْعُولُ بِهِ شَرٌّ مِنْ وَلَدِ الرَّبِّيِّ، وَأَخْزَى وَأَحْبَثُ وَأَوْفَحُ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يُؤَفَّقَ لِحَيْرٍ، وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكُلَّمَا عَمِلَ خَيْرًا فَيَضُرَّ اللَّهُ لَهُ مَا يَفْسِدُهُ عُقُوبَةً لَهُ، وَقَلَّ أَنْ تَرَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي صِغَرِهِ إِلَّا وَهُوَ فِي كِبَرِهِ شَرٌّ بِمَا كَانَ، وَلَا يُؤَفَّقُ لِعِلْمٍ نَافِعٍ، وَلَا عَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا تَوْبَةٍ نَصُوحٍ.

☞ وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ تَابَ الْمُتَبَلَّى بِهَذَا الْبَلَاءِ وَأَنَابَ، وَزُرِقَ تَوْبَةً نَصُوحًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَكَانَ فِي كِبَرِهِ خَيْرًا مِنْهُ فِي صِغَرِهِ، وَبَدَّلَ سَيِّئَاتِهِ بِحَسَنَاتٍ، وَعَسَلَ عَارَ ذَلِكَ عَنْهُ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَعَضَّ بَصَرَهُ وَحَفِظَ فَرْجَهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَصَدَّقَ اللَّهَ فِي مُعَامَلَتِهِ، فَهَذَا مَعْفُورٌ لَهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،

فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمُحُو كُلَّ ذَنْبٍ، حَتَّى الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَقَتْلَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالسِّحْرَ وَالْكَفْرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْصُرْ عَنْ مَحْوِ هَذَا الذَّنْبِ، وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ عَدْلًا وَفَضْلًا أَنْ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكَ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالرِّبَا، أَنَّهُ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ لِكُلِّ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبٍ.

[إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ]

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٥٣].

← فَلَا يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِينَ خَاصَّةً.

كَمَا وَأَمَّا الْمَفْعُولُ بِهِ إِنْ كَانَ فِي كِبَرِهِ شَرًّا مِمَّا كَانَ فِي صِغَرِهِ؛ لَمْ يُوقَفْ لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَلَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ، وَلَا أَبْدَلِ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، فَهَذَا بَعِيدٌ أَنْ يُوقَفَ عِنْدَ الْمَمَاتِ لِخَاتِمَةِ يَدْخُلِ بِهَا الْجَنَّةَ، عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَةِ بِسَيِّئَةٍ أُخْرَى، وَتَتَضَاعَفُ عُقُوبَةُ السَّيِّئَاتِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، كَمَا يُثَبِّبُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِحَسَنَةٍ أُخْرَى.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ وَجَدْتَهُمْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ.

﴿قَالَ الْخَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّيْبَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ - أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا - أَسْبَابًا، وَلَهَا طُرُقٌ وَأَبْوَابٌ، أَعْظَمُهَا الْإِنْكِبَاتُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأُخْرَى، وَالْإِقْدَامُ وَالْجُرْأَةُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرُبَّمَا غَلَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ ضَرْبٌ مِنَ الْخَطِيئَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَجَانِبٌ مِنَ الْإِعْرَاضِ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَمَلَكَ قَلْبَهُ، وَسَبَى عَقْلَهُ وَأَطْفَأَ نُورَهُ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ حُجْبَهُ فَلَمْ تَنْفَعْ فِيهِ تَذَكُّرَةٌ، وَلَا نَجَحَتْ فِيهِ مَوْعِظَةٌ، فَرُبَّمَا جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعَ النَّدَاءَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلَمْ يَتَّبِعْ لَهُ الْمُرَادَ، وَلَا عَلِمَ مَا أَرَادَ، وَإِنْ كَرَّرَ عَلَيْهِ الدَّاعِي وَأَعَادَ.

﴿قَالَ: وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ رِجَالِ النَّاصِرِ نَزَلَ الْمَوْتُ بِهِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعَادَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ غَشِيَةٌ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، وَكَانَ هَذَا دَأْبَهُ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ: يَا فَلَانُ، النَّاصِرُ إِنَّمَا يَعْرِفُكَ بِسَيْفِكَ، وَالْقَتْلُ الْقَتْلُ، ثُمَّ مَاتَ.

❦ قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ: وَقِيلَ لِأَخْر - مِمَّنْ أَعْرَفَهُ - قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَجَعَلَ يَقُولُ: الدَّارُ الْفَلَايِيَةُ أَصْلِحُوا فِيهَا كَذَا، وَالْبُسْتَانُ الْفَلَايِيُّ افْعَلُوا فِيهِ كَذَا.

❦ وَقَالَ: وَفِيمَا أَذِنَ أَبُو طَاهِرٍ السَّلْفِيُّ أَنْ أُحَدِّثَ بِهِ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ بِالْفَارِسِيَّةِ: دَهْ يَارَدَهْ دَهْ وَارَدَهْ، تَفْسِيرُهُ: عَشْرٌ بِأَحَدٍ عَشْرًا.

❦ وَقِيلَ لِأَخْر: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ قَالَ: وَهَذَا الْكَلَامُ لَهُ قِصَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ وَاقِفًا بِإِزَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ بَاهُجًا يُشْبِهُ بَابَ هَذَا الْحَمَامِ، فَمَرَّتْ بِهِ جَارِيَةٌ لَهَا مَنْظَرٌ، فَقَالَتْ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ؟ فَقَالَ: هَذَا حَمَامٍ مِنْجَابٍ، فَدَخَلَتِ الدَّارَ وَدَخَلَ وَرَاءَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ نَفْسَهَا فِي دَارِهِ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ خَدَعَهَا، أَظْهَرَتْ لَهُ الْبُشْرَى وَالْفَرَحَ بِاجْتِمَاعِهَا مَعَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا مَا يَطِيبُ بِهِ عَيْشُنَا وَتَقْرُّ بِهِ عُيُونُنَا، فَقَالَ لَهَا: السَّاعَةَ آتِيكَ بِكُلِّ مَا تُرِيدِينَ وَتَشْتَهِينَ، وَخَرَجَ وَتَرَكَهَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يُغْلِقْهَا، فَأَخَذَ مَا يَصْلُحُ وَرَجَعَ، فَوَجَدَهَا قَدْ خَرَجَتْ وَذَهَبَتْ، وَلَمْ تَخُنْهُ فِي شَيْءٍ، فَهَامَ الرَّجُلُ وَأَكْثَرَ الذِّكْرَ لَهَا، وَجَعَلَ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَالْأَرْزَاقِ وَيَقُولُ: يَا رَبُّ قَائِلَةٌ يَوْمًا وَقَدْ تَعَبْتُ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ؟ فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَقُولُ ذَلِكَ، إِذَا بِجَارِيَتِهِ أَجَابَتْهُ مِنْ طَاقٍ: هَلَّا جَعَلْتِ سَرِيعًا إِذْ ظَفَرْتِ بِهَا ... جِزْرًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى الْبَابِ فَارْدَادَ هَيْمَانُهُ وَاشْتَدَّ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ هَذَا الْبَيْتُ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا.

❦ وَلَقَدْ بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُفُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الدُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تَبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ: الدُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْحَاتِمَةِ.

❦ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِئَةِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ دُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَاتِمَةِ الْحُسْنَى.

❦ وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ لَمَّا اخْتَضَرَ جَعَلَ يُعْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَفِيقُ وَيَقْرَأُ: { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١١٠].

❦ فَمِنْ هَذَا خَافَ السَّلْفُ مِنَ الدُّنُوبِ، أَنْ تَكُونَ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَاتِمَةِ الْحُسْنَى.

❦ قَالَ: [عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِسْبِيلِيُّ] وَأَعْلَمُ أَنَّ سُوءَ الْحَاتِمَةِ - أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا - لَا تَكُونُ لِمَنْ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلَحَ بَاطِنُهُ، مَا سَمِعَ بِهَذَا وَلَا عَلِمَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقْدِ، أَوْ إِصْرَارٌ عَلَى الْكِبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعِظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزَلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوْبَةِ، وَيَصْطَلِبُهُ قَبْلَ الْإِنَابَةِ فَيُظْفَرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَخْتَطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

﴿قَالَ: وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزِمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بِهَاءِ الطَّاعَةِ وَأَنْوَازِ الْعِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَاطَّلَعَ فِيهَا، فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ فَافْتَنَّ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكَ، فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَّيْتُ لِي، وَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَلْبِي، قَالَتْ: لَا أُحِبُّكَ إِلَى رَيْبَةٍ أَبَدًا، وَقَالَ: أَتَزَوَّجُكَ؟ قَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ وَأَبِي لَا يُرَوِّجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنْصِرُ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلْ، فَتَنْصَرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَى سَطْحِ كَانِ فِي الدَّارِ فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَطْفُرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ.

﴿قَالَ: وَيُرْوَى أَنَّ رَجُلًا عَشِقَ شَخْصًا فَاشْتَدَّ كَلْفُهُ بِهِ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ، حَتَّى وَقَعَ أَمُّ بِهِ وَلَزِمَ الْفِرَاشَ بِسَبَبِهِ، وَتَمَنَّعَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عَلَيْهِ، وَاشْتَدَّ نِفَارُهُ عَنْهُ، فَلَمْ تَزَلِ الْوَسَائِطُ يَمْشُونَ بَيْنَهُمَا حَتَّى وَعَدَهُ بِأَنْ يَعُودَهُ، فَأَخْبِرَهُ بِذَلِكَ النَّاسُ، فَفَرِحَ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ وَانْجَلَى عَمُّهُ، وَجَعَلَ يَنْتَظِرُ الْمِيعَادَ الَّذِي ضَرَبَ لَهُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ السَّاعِي بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: إِنَّهُ وَصَلَ مَعِيَ إِلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ وَرَجَعَ، وَرَعَّبْتُ إِلَيْهِ وَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ ذَكَرَنِي وَصَرَخَ بِي، وَلَا أَدْخُلُ مَدَاخِلَ الرِّيبَةِ وَلَا أُعْرِضُ نَفْسِي لِمَوَاقِعِ التُّهْمِ، فَعَاوَدْتُهُ فَأَبَى وَانْصَرَفَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْبَائِسُ أُسْقَطَ فِي يَدِهِ، وَعَادَ إِلَى أَشَدِّ مِمَّا كَانَ بِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلَائِمُ، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ:

أَسْلَمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ ... وَيَا شِفَا الْمُدْنَفِ التَّحِيلِ

رِضَاكَ أَشْهَى إِلَيَّ فُوَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: قَدْ كَانَ، فَقُمْتُ عَنْهُ، فَمَا جَاوَزْتُ بَابَ دَارِهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ الْمَوْتِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَشُرْمِ الْخَاتِمَةِ.